

حسن أوريد يكتب

” عبد الرحمن اليوسفي أو بلاغة الصمت ”

ترجل آخر الزعماء الوطنيين بالمغرب المرحوم عبد الرحمن اليوسفي الجمعة 29 مايو الماضي، وبرحيله يفقد المغرب والمغاربية والعالم العربي والأممية الاشتراكية شخصية فذة، لم ينفصل عندها النضال من أجل دولة ديمقراطية ومجتمع حر وطنيا، عن الوحدة مغاربية، والعزة والكرامة على مستوى العالم العربي، ومحورية القضية الفلسطينية.

في أكتوبر 2015 حرص عبد الرحمن اليوسفي على تنظيم لقاء وفاء للزعيم المهدي بن بركة، بمناسبة الذكرى الخمسين على اختطافه، ومن الشخصيات التي كان عبد الرحمن اليوسفي حريصا على استضافتها، الدبلوماسي الجزائري الأخضر الإبراهيمي، وكان من الشهادات المؤثرة تلك التي قدمها الأخضر الإبراهيمي، وكان حينها سفيرا للجزائر في مصر، وكانت الاتصالات مع الزعيم المغربي المهدي بن بركة تتم عبر سفارة الجزائر. تعشى الاثنان بالقاهرة في مقر الإقامة الجزائرية بتاريخ 28 أكتوبر حتى الفجر، واصطحب الأخضر الإبراهيمي المهدي بن بركة إلى مطار القاهرة، وكان المهدي يحمل جواز سفر جزائريا باسم محمد الزايدي، ليعرف المصير المعلوم...

على هامش ذلك اللقاء نظم القيادي الاشتراكي ووزير الاقتصاد والمالية السابق فتح الله ولعلو مائدة عشاء حضرها كل من القيادي المرحوم عبد الرحمن اليوسفي والأخضر الإبراهيمي ومستشار الملك عمر عزيمان وفتح الله ولعلو وكاتب هذه السطور، وكان مما قاله الأخضر لليوسفي: السي عبد الرحمن، لدينا مسؤولية حيال الجيل الجديد، للتذكير بالأواصر المشتركة بين بلدينا، ولديك رصيد ينبغي أن تستثمره لصالح القضية الفلسطينية. الأمل معقود علينا نحو بلاد المغرب، ونظرة الشرق حيالنا تغيرت، وينظر إلينا كأمل. وبالفعل رحل عبد الرحمن اليوسفي في ديسمبر للجزائر، بمناسبة وفاة الزعيم الجزائري الحسين آيت أحمد، لتقديم العزاء، وذكر من مطار الجزائر فور وصوله بمحورية القضية الفلسطينية وتآلم من التجاهل الذي طالها.. وأكد الأخضر الإبراهيمي في مارس 2016 بنادي الدبلوماسيين بالجزائر في محاضرة ألقاها على ضرورة فتح الحدود بين المغرب والجزائر، وانتهد اليوسفي صدور مذكراته سنة 2018 ليحل بوجدة، ويذكر بضرورة البناء المغاربي، ردا على محاضرة الأخضر الإبراهيمي. كانت رسائل مشفرة، يملئها واجب الوفاء لنضال جيل، من خلال شخصيتين وازنيتين من البلدين على المستوى الوطني والدولي.

كانت حياة عبد الرحمن اليوسفي غنية لا تختزل في جانب. كان من الرعيل الأول من شبيبة حزب الاستقلال، واضطلع بتفريب السلاح من إسبانيا إلى كل من الثوار في الجزائر وجيش التحرير بالمغرب، من خلال تواجده حينها بمدريد والدور الذي اضطلع به الملحق العسكري لمصر بمدريد فتحي الديب، في دعم جيشي التحرير في المغرب والجزائر. غداة استقلال المغرب، اختار عبد الرحمن اليوسفي الجناح اليساري إلى جانب

المهدي بن بركتة وعبد الرحيم بوعبيد والفقير البصري، وتعرض جراء ذلك للسجن والمضايقات، وانتهى به الأمر إلى النفي. كانت فترة متوترة من تاريخ المغرب، وكانت تلقي ظلالها على الاشتراكيين المغاربة، وكانوا أغلبهم يميلون إلى ما كان يسمى بالخيار الثوري ضد النظام، ولكن خيارا آخر سوف ينضج، وهو الخيار الديمقراطي، الذي سيتزعمه عبد الرحيم بوعبيد، ويتبلور من خلال إنشاء الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية سنة 1975، وسيزكي عبد الرحمن اليوسفي من منفاه بفرنسا هذا الخيار من خلال بعثه بتسجيل صوتي للمؤتمر، إلا أنه لن يدخل المغرب إلا سنة 1980.

بدأت حياة جديدة لعبد الرحمن اليوسفي حين تولى مسؤولية الكاتب الأول لحزب الاتحاد الاشتراكي خلفا لعبد الرحيم بوعبيد، سنة 1992. كان مهندس بناء الثقة مع القصر، في أفق نص دستوري جديد، وحل القضايا العالقة في حقوق الإنسان، رغم دقة الظرف بالنظر لاعتقال النقابي نويير الأموي.. استطاع الملك الراحل الحسن الثاني أن يكسر الجليد معه، في أول لقاء به، بتقديمه لولديه ولي العهد حينها (الملك الحالي) وأخيه الأمير رشيد، بأنه مهرب سلاح، في عهد الاستعمار، وكان حينها فعلا مرتبطا بشخصية تونسية فذة، حافظ إبراهيم، كان مقيما في إسبانيا وكان عربا للحركات التحريرية في كل من الجزائر والمغرب، ووضع ثروته وعلاقاته لخدمة حركة التحرر في بلدان المغرب، فضلا عن العلاقة التي ربطته بفتح الديب الملحق العسكري المصري بمدريد.

من اللحظات اللافتة، أثناء قيادة اليوسفي لحزب الاتحاد الاشتراكي، سعيه لإعطاء دفعة لصحافة حزب الاتحاد الاشتراكي. استقدم من أجل ذلك صحافيا متميزا من أصول موريتانية، محمد باهي حرمة الله، كان حينها يقيم في باريس، وكان من الأقلام المتميزة، ذا ثقافة واسعة، وحس سياسي ثاقب، ولغة راقية، اشتغل لفترة في الستينيات في جريدة «الشعب» الجزائرية (الصيغة العربية لجريد المجاهد التي تصدر بالفرنسية). اصطدم باهي بعراقيل، ولم تسعف ظروفه الصحية فمات جراء سكتة قلبية. أثرت وفاة باهي في الحزب، وكادت تفضي لشرح. تغلب اليوسفي بحكمته على المحنة. وكان أن نظم حفلا تأبينيا للفقيد في سبتمبر 1996 بالمركب الثقافي للمعارف بالدار البيضاء، أتيح لي أن أحضره. وكان ممن حضره من المتدخلين المرحوم أحمد بن بله، والمرحوم أحمد بابا ميسكي، كان كتب كتابا عن البوليساريو بعنوان «البوليساريو روح شعب»... انتفت الاختلافات أو على الأصح التامت أسرة بعد فرقة. وكان عبد الرحمن يستطيع ذلك بالنظر لرصيده النضالي ومصاديقته.

حياة عبد الرحمن اليوسفي غنية لا تختزل في جانب... التمت كل الأطياف في المغرب وخارجه، على تقديره، وتكريم ذكراه

كان الملك الحسن الثاني يعرف أن شريكه في إنجاح التناوب هو اليوسفي، ولذلك أخذ اليوسفي على نفسه خيارا صعبا عرضه لانتقادات من لدن راديكاليي الحزب وشيبيته، وهو التصويت على دستور 1996، وقال قولته الشهيرة ضد منتقديه، ليس في السياسة

تأمين ضد كل الأخطار. وبالفعل تحقق معه التناوب، وترأس عبد الرحمن اليوسفي الحكومة في فبراير 1998، واعتبرته الصحافة المغربية أول وزير أول.

استمرت حكومة التناوب، وما كان لها لتستمر لولا حكمة اليوسفي الذي اصطدم أولاً بما كان يسمى بجيوب المقاومة، وتحامل حزب الاستقلال، ثم بمحاولات للنسف، منها تسريب رسالتة للفقير البصري حول ضلوع قياديين من الاتحاد الوطني في المحاولة الانقلابية للجنرال أوفقيير. واتخذ اليوسفي حينها قراراً صعباً، هو منع الجريدة التي نشرت الرسالة «لوجرنال» مع أسبوعية الصحيفة و«ماكازين دومان». ولعل التاريخ يوماً أن يسفر عن ملاحظات تلك الفترة. استغني عن اليوسفي سنة 2002، رغم أن حزب الاتحاد الاشتراكي تصدر نتائج الانتخابات، وهو ما اعتبر إجهاضاً للتناوب الديمقراطي.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت فترة جديدة من تاريخ يوسفي، أضحت فيها سلطة معنوية. رغم أنه نأى عن الأضواء. تعرض لوابل من الانتقادات من ذوي الرحم، ولكنه وجد صدراً رحباً في المجتمع وفي جيل جديد، وعرفت له الدولة ومؤسساتها عفته وسموه الخلقى وأخلاقيات الدولة. ظل وفياً لأصدقائه فحفظ ذكراهم ورعى تكريمهم، منهم المهدي بن بركتة، وعبد الحميد مهري الأمين العام السابق لجهة التحرير الوطني، ومحمد باهي، وحافظ إبراهيم (من تونس)، وعابد الجابري.

ما يحضرني من هذه الصور التي تكشف شخصية الإنسان أكثر من الأحداث الجليلية، مما حكاه لي، وهو إذاك تلميذ في ثانوية مولاي يوسف بالرباط في الأربعينيات، على أستاذ جزائري يدرس اللغة العربية، وكان الدرس حول معاني الحروف، وحروف الصفير التي تفيد القبيح من الأمر، ومنها حرف السين، وما كان من اليوسفي إلا أن نطق بكلمة «الفرنسيس» (الفرنسيون)، فرد الأستاذ على التو، «اليوسفي»، وهو يشفع ذلك بابتسامته تدل على حس الدعابة وقوة البديهة. التقت كل الأطياف في المغرب وخارج المغرب، على تقديره، وتكريم ذكره. ولعل مما يستأثر بالاهتمام أن عزي فيه الملك محمد السادس مشيداً بوطنيته وحكمته، والرئيس الجزائري عبد المجيد تبون مذكراً بمساندته للشورة الجزائرية وإيمانه بالوحدة المغاربية، وأن يرقد الرقود الأبدي إلى جوار شخصية مغربية متفردة، من قيادي الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، ومن تقلد رئاسة الحكومة في فجر الاستقلال، عبد الله إبراهيم.

كاتب مغربي.